

كيفية مراعاة الاعتبارات الثقافية والدينية في الاختبارات النفسية الإسقاطية

رائز القدم السوداء نموذجاً

**How to take into account cultural and religious considerations in
projective psychological tests
"Black feet Test" as a model**

بزراوي نور الهدى¹

¹مخبر الاضطرابات النمائية العصبية والتعلم TND A جامعة تلمسان

nourelhouda.bezraoui@univ-tlemcen.dz

عثماني نعيمة²

²جامعة د مولاي الطاهر سعيدة

naima.otmani@univ-saida.dz

تاريخ القبول: 2021/03/16

تاريخ الاستلام: 2021/02/20

ملخص:

إنَّ الإشكالية التي تطرحها مسألة تطبيق الاختبارات الإسقاطية في الممارسة النفسية العيادية ترتبط بالجدلية المطروحة حول تكييف هذه الاختبارات وفقاً للبيئة التي تطبق فيها، والتي ترتبط في جوهرها بالاعتبارات الثقافية والدينية التي قد تتأثر (من خلال استجابة المفحوص) بمادة الاختبار (الصور والأدوات)، ومن ثمَّ تأثيرها على النتائج المتوصل إليها. وعليه تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن كيفية مراعاة الاعتبارات الثقافية والدينية عند استخدام هذا النوع من الاختبارات.

الكلمات الدالة: الاعتبارات الثقافية والدينية، الاختبارات الإسقاطية، رائز القدم السوداء.

Abstract:

The problem raised by the issue of applying projective tests in clinical psychological practice is related to the controversies surrounding the adaptation of these tests according to the environment in which they are applied, which is related in essence to cultural and religious considerations that may be affected (through the subject's response) by the test material (images and tools), and then its effect on the

* المؤلف المرسل: بزراوي نور الهدى، الإيميل: nourelhouda.bezraoui@univ-tlemcen.dz

findings. Therefore, this research paper aims to reveal how cultural and religious considerations are taken into account when using this type of test.

Keywords: cultural and religious considerations, projective tests, Black feet Test

مقدمة:

من بين المهام الأساسية التي يتولاها المختص النفسي في إطار ممارسته المهنية، وحتى البحثية، هو القيام بعملية الفحص النفسي بهدف التشخيص والتقييم للوظائف النفسية والعقلية للمفحوص، والتي تعتمد بشكل كبير على استخدامه للاختبارات النفسية باعتبارها أداة وسيطة وموضوعية يمكن استغلالها أثناء القيام بعملية التشخيص والتقييم وكذا التحليل الإكلينيكي وحتى العلاج (التفريغ)، إذ يشير (René Roussillon, 2014, P 506) إلى أنّ عملية تطبيق الاختبارات الإسقاطية تمنح للمختص النفسي إمكانية جمع معلومات معمقة يصعب الوصول إليها بشكل نوعي في جداول معقدة. بهذا الخصوص يوفر استخدام الاختبارات الإسقاطية ملاءمةً ثمينًا كلما كانت الوضعية العيادية غير واضحة، أو عندما تثار مسألة التشخيص التفريقي، وهو أمر ضروري لتحديد ما إذا كانت تتضمن نماذج علاجية محددة. فأتثناء حديثه عن المقاربات الإسقاطية، يشير (Sangana 1997) إلى شيوع استخدام هذا النوع من الاختبارات في الممارسة العيادية، وبأنها تُخضع بنوع من الدقة والضبط من حيث كيفية وشروط تطبيقها، إلا أنها تعرف بعض الصعوبات فيما يتعلق بتفسير وتحليل المعطيات (Robert Samatcher, 2005, P 421)، وهو ما يربطه العديد من العلماء والباحثين بمسألة صدق وثبات الطرق الإسقاطية، وهذا ما يمثل بالضبط المشكلة الجدلية التي تطرحها الطرق الإسقاطية، وخاصة منها تلك التي تعتمد على استخدام الصور والأدوات كمثيرات يستدعيها المحتوى الظاهر للاختبار (البطاقات)، ومنها: اختبار تفهم الموضوع للراشدين (TAT)، واختبار تفهم الموضوع للأطفال (CAT)، ورائز خروف القدم السوداء (PN)، والتي ينتمي مصممها إلى مجتمعات وثقافات أخرى. وقد كان فرانز فانون (Franz Fanon) قد استنكر استخدام اختبار تفهم الموضوع للراشدين (TAT)، وهو اختبار أمريكي المنشأ، بين النساء المسلمات، مشددًا على أن المواقف الموجودة على البطاقات التي طُلب منهن تخيلها تشير إلى الثقافة الأنجلو سكسونية ولم تعني شيئًا بالنسبة لهن (Robert Berthelie, 2006, P 23).

وفي نفس الإطار يذكر (Hamon et al., 2001, P 16) أنه من أجل تحديد السمات الشخصية للمرضى العقليين في المجتمعات التقليدية، يستخدم الباحثون في علم النفس السلالي Ethnopsychologie، الاختبارات الإسقاطية بشكل أساسي، حيث تؤكد نتائج هذه الدراسات جميعها على التجانس البنيوي للمرضى، مما يدل على وجود تنظيم مماثل للشخصية الأساسية. كما أظهر بوشي (1994) Pochet تمايزًا مشاهيًا بين ملامح الشخصية الغربية لدى سكان الحضر والريف والتي من المفترض أن تكون عصرية وتقليدية على التوالي. ومع ذلك، فإن الاختلافات الملحوظة لم تظهر بشكل جلي مثلما هو الحال لدى الأشخاص المنحدرين من الثقافات غير الغربية. ومن ثمّ يخلص قائلًا: إذا كانت الثقافة، ولا سيما المعتقدات، تمارس "حتمية" معينة على الشخصية الأساسية للأفراد، فإنّ استخدام اختبارات الشخصية وقوائم الجرد على هؤلاء الأشخاص يمثل مشكلة، بقدر ما تم تطوير هذه الأدوات السيكمترية لاختبار السمات الشخصية المختلفة لـ أفراد ينتمون إلى الثقافة الغربية. وهذا الأمر يدفع بنا إلى التساؤل حول مدى صلاحية استخدام هذه الاختبارات الإسقاطية على البيئة الجزائرية (وحتى البلدان العربية والإسلامية) وذلك في ظل تصميمها من طرف باحثين أجانب ومن ثقافات ومعتقدات دينية مختلفة عنا.

أولاً: الاختبارات الإسقاطية:

يعود مصطلح الطرق الإسقاطية إلى العالم الأمريكي فرانك (1939) L.K. Frank. وتعود أولى الأعمال ذات التوجه التحليلي في هذا المجال إلى شافر (1954) R. Schafer. كما عرفت نفس الفترة أيضاً الحديث عن الاختبارات الإسقاطية، والتقنيات الإسقاطية والروايز الإسقاطية. وقد ذهب لاجاش إلى حد استحضر الدلالة النوعية من خلال استخدامه لمصطلح "الإكلينيكية الأدائية والمسلحة clinique instrumentale et armée"، وهو ما قد يكون تبريراً للموضوعية "العلمية" لهذا النوع من الاختبارات، ذات النوعية الجيدة لنهج مبتكر للغاية في ذلك الوقت (Arbisio-Lesourd, Del Volgo et al., 2001, P 135).

والاختبارات أو الروايز الإسقاطية هي نوع من الاختبارات النفسية التي يتم استخدامها بهدف تحديد مسار الشخصية اعتماداً على استجابات المبحوث نحو المثيرات المقدمة له. كما أنّها تستدعي آليات

التكيف مع الواقع، والتي تحكم الاستخدام الملائم للإدراكات، وآليات الإسقاط التي من خلالها تنعكس العناصر الهوائية والعاطفية التي تجعل من المفحوص شخصا فريداً» (Postel, 2003).

ثانياً: مميزات الطرق الإسقاطية:

إن الاستجابات المقدمة من طرف المبحوث (الإنتاج الإسقاطي) هي بمثابة المادة الجوهرية في هذا النوع من الاختبارات، إذ بواسطتها يستطيع الأخصائي النفسي التعرف على طبيعة المعالجة النفسية للمثيرات المدركة، وذلك وفقاً للمنظمات القاعدية لكل توظيف نفسي. فالوضعية القياسية الإسقاطية تضع المبحوث أمام موقف صراعي يجب عليه التعامل معه، وهذا ما يسمح بـ:

➤ التعرف على أهم انشغالات المبحوث التي غالباً ما تظهر كواجهة في استجابات المبحوث، والتي يتم التعبير عنها من خلال الهوامات.

➤ الكشف عن طبيعة ونوعية الوجدان وتمثلات المبحوث.

➤ التعرف على طريقة بناء المواضيع الداخلية (الذات) والعلاقة بين شخصية.

ثالثاً: خصائص تفسيرات الاختبارات الإسقاطية في ظل الاعتبارات الثقافية والدينية:

يشير (Jean-Adolphe Rondal, 1999, P 48) إلى أنّ الاختبارات النفسية هي أدوات يصعب استخدامها، ذلك أنّ بساطتها الظاهرة خادعة. فالتفسيرات المشتقة صالحة فقط إذا تم تطبيق الاختبارات عن تبصر ومعرفة تامة بخصائصها الإجرائية، إضافة إلى ضرورة أن تكون المعلومات الصادرة من الاختبار مرتبطة دائماً بما يعرفه المختص النفسي عن المفحوص من جهة آخر، أي بيانات السوابق النفسية نفسها.

ومن أهم مميزات الأساليب الإسقاطية أنّها تستدعي محتوى ظاهر ومحتوى كامن أو باطن يسمحان للأخصائي النفسي بإنشاء علاقات تساعد أثناء عملية فهم خطاب المبحوث. لكن من أهم الشروط الواجب احترامها أثناء عملية تفسير وتحليل النتائج كما تقول (Nina De Traubenberg) هو عدم استعمال هذه التفسيرات بطريقة صلبة لأنّ ذلك سوف يجعل الأخصائي النفسي يهمل الأهم في الإنتاجات ألا وهو بعدها الترابطي Associative. فالمهم ليس ما قيل في المحتوى ولكن أيضاً كيف قيل، والتي تعني هنا، أنّ المبحوث، ومن خلال استجاباته، يظهر إلى أي مدى وكيف ينظم نفسه لمواجهة

التفاعلات بين عالمه الداخلي وبيئته، وهذا ما يعني أيضا أنّ الحجر الزاوية في الإنتاج لإسقاطي للمبحوث يرتكز على مجموع العمليات النفسية والفكرية والمعرفية التي تمّ توظيفها من أجل إعطاء تلك الاستجابات، ومعناه أيضا أنّ تفسير وتأويل استجابات المفحوص لا يتوقف عند ما تمّ لإفصاح عنه، وإنما كذلك ما رافقها من وجدان وانفعالات وإيماءات، الخ...

وفي نفس السياق تذكر (مروة سلامة، 2015، ص34-35) أنّ التحليل الموضوعي يتطلّب الاقتراب من المحتوى بمستوى معيّن من التجريد النفسي (السيكودينامي) والمفاهيم الهرمية المطلوبة للفصل، للترابط، لتقدير الأهمية وإعطاء المحتوى للموضوعات التي نستخرجها من الاستجابات.

وغالبا ما تعتمد عملية التفسير في تقنية الإسقاط على مفاهيم التحليل النفسي، خاصة فيما يتعلّق بمختلف التأويلات التي تعود إلى رمزية التحليل النفسي، وبالرغم من أنّ عملية التحليل هذه ضرورية إلاّ أنّه غالبا ما تستوجب العملية إعادة وضع كل من تلك العناصر في سياق الشخص ككل، أي ما يطلق عليه اسم «المرجعية الذاتية للمفحوص»، والتي يقصد بها مرجعية الذات والمعتقدات، والدين والقيم والثقافة، ونظم جميع الأنساق التي ينتمي إليها المبحوث (الأسرة، المدرسة، الرفاق، المهنة، الخ..)، والتي يتمّ الكشف عنها بواسطة المقابلة.

كما يدعو مجموع المختصين والممارسين النفسانيين إلى أهمية احترام وتطبيق تلك الشروط والقواعد المنصوص عليها في ميثاق آداب وأخلاقيات المهنة، المرتبطة بإجراءات استخدام الاختبارات النفسية، والتي نحصّرها في:

➤ التأكد من ملائمة الاختبارات مع السياق الاجتماعي والثقافي للطفل، وتفسيرها على أساس خصوصيات (اللغة والمجتمع والثقافة).

➤ عدم الاكتفاء بنسخ النتائج الخام، بل يجب تفسيرها من أجل استخراج معناها.

➤ على المختص النفسي أن يأخذ بعين الاعتبار أن القياسات التي يقوم بتفسيرها هي مجرد تقديرات لخصائص نفسية حالية (آنية)، وهذا يعني أن تلك القياسات المحصل عليها لا تعكس خصائص فطرية غير قابلة للتغيير، بل أنّها تمثل خصائص سيكولوجية حالية، نتيجة لنمو (تطور) وفقا لظروف الحياة (Levy et Missler, 2010).

وهذا ما أكدّه فالون عندما أشار إلى ضرورة أن نرى كلّ نظرية نفسية عن الشخصية بخلفيتها الفلسفية، بتاريخها، وبالعلاقتها مع المفاهيم الأخرى ومكانتها في الوسط الثقافي والاجتماعي لعصرها (فالادون، 1990، ص 8).

رابعاً: الاعتبارات الثقافية الدينية في عملية تكيف الاختبارات النفسية:

للتأكيد على ضرورة بل إجبارية مراعاة الاعتبارات الدنية والثقافية في أثناء عملية ترجمة وتكييف الاختبارات النفسية سوف نبدأها باستعارة الرؤية النقدية التحليلية لـ (عمر هارون الخليفة، 2010، ص 346) حول مدى صلاحية أدوات علم النفس (في العالم العربي)، وذلك حين أشار إلى أنّ البحث العلمي عبارة عن تركيب وتجميع وليس بصنيع، ونحن نستورد أدوات علم النفس ونقوم بمجرد تركيبها فقط ولا تصنيعها، تماماً كما نستورد السيارة التي نعرف كيف نقودها ولا نستطيع اكتشاف قطع غيار لتصليحها. ثمّ يخلص بالقول إنّ علم النفس ليس هو مجرد فهم وتفسير تجزئي للجوانب السلوكية والعقلية للفرد، إنّّه منظومة كبيرة يجب أن تتكامل مع المنظومات الثقافية والاجتماعية. وهو ما ذهب إليه (الصلاصمة، 2018، ص 68-69) أنّه لا بد على الباحث أن يكون على وعي تام بالثقافة التي يعيش فيها الفرد المبحوث، وذلك بهدف التمكن من فهم المقبول وغير المقبول في هذه الثقافة خصوصاً في ظل معرفة أنّ للثقافة تأثير في سلوك الأفراد وتشكيل شخصياتهم. ومن ثمّ تأتي أهمية دراسة الباحث للظروف البيئية التي تؤثر في الفرد مما يساعد في تحديد السلوكيات التي يقوم بها الفرد.

ومن هذا المنظور عرّفت الهيئة الدولية للاختبارات، كم ورد في (رونالد وآخرون، 2006، ص 44) دليل تكيف الاختبارات كالاتي: "هو مزاولة مهنة تعدّ مهمة لإدارة وتقويم التكيف أو تطور موازٍ للاختبارات النفسية والتربوية للاستخدام في مجتمعات مختلفة". وسنورد بعض نماذج الخطوط الموجودة ضمن تلك اللائحة مع شرح الأسباب، ولا بأس أن نشير إلى أنّ النماذج التي تمّ الوقوف عليها، هي تلك التي أكدت بشكل واضح وصريح على الأخذ بعين الاعتبار المعايير اللغوية والثقافية والاجتماعية، وهي:

1: من حيث المضمون:

- يجب تقليل تأثيرات الاختلافات الثقافية غير الضرورية في اكتساب الدراسة الأساسية إلى الحد الأدنى، وذلك بسبب وجود الكثير من العوامل المؤثرة في المقارنة غير اللغات والثقافات التي يجب أخذها بعين الاعتبار عند مقارنة مجموعتين أو أكثر من ذوي خلفية لغوية ثقافية مختلفة خاصة عند تطوير اختبار أو تكييفه (وينر، 1993).
- يجب تقييم تداخلات التراكيب التي يجري تقديرها في الاختبار ضمن المجموعات التي تجري الاختبارات، ويعود السبب في ذلك أنّ الاختلافات الموجودة بين الثقافات واللغات المختلفة للمجموعات على اختلافات تقاليد، قواعد السلوك والقيم، ولكن أيضا على رؤية العالم وترجماتها، كأن يرتبط مفهوم الذكاء في المجتمعات الغربية مع التقديم السريع في للإجابات، بينما يرتبط في الثقافات الشرقية مع التفكير، الاستجابة والإجابة الصحيحة.

2: من حيث تطوير الاختبار وتكييفه:

- يجب على الذين يقومون بعملية التطوير والناشرين التأكد من أنّ عملية التكييف تأخذ في الحسبان الاختلافات اللغوية الثقافية للمجموعات المقصودة
- يجب على الذين يقومون بعملية التطوير والناشرون إقامة الأدلة بأنّ اللغة المستخدمة في تعليمات الاختبارات، إرشادات الدرجات، وفي البنود مناسبة للغة وثقافة جميع المجموعات التي ستقوم بالاختبار.

3: من حيث الإدارة:

- يجب أن تكون أوجه المحيط أو البيئة التي تؤثر في إدارة الاختبار متشابهة إلى أقصى حد عبر المجموعات التي تجري الاختبار.

4: من حيث تفسير النتائج:

- يجب أن لا تأخذ اختلافات الدرجات لنماذج المجموعات التي قامت بالاختبار كقيمة ظاهرية. وإنما على الباحث مسؤولية إقامة الدليل على معنى الاختلافات من الأدلة التجريبية (رونالد وآخرون، 2006، ص 44).

خامسا: تقويم الطرق الإسقاطية من حيث الصدق والمصادقية:

لقد قامت أنستازي Anastasi بعملية تقييم للطرق الإسقاطية، حيث ترى أنه على الرغم من توفر كم هائل من النتائج والتقارير والبحوث، إلا أن ما تقدمه هذه الطرق من تفسيرات غير مؤكدة. وقد اعتمدت في عملية التقييم هذه على معيارين أساسيين، هما: القابلية للتزييف، حيث تشير هنا إلى أن الطرق الإسقاطية هي أقل تزييفا مقارنة مع قوائم التقرير الذاتي، ذلك أن هدف الطرق الإسقاطية عامة ما يكون مستترا ومقنعا قد يصعب على أي فرد، حتى وإن توفرت لديه بعض المعلومات، التنبؤ بطرق تقدير الاستجابات وكيفية تفسيرها، ومعيار الباحث والمتغيرات الموقفية، حيث يتعلّق الأمر هنا بعملية التقنين للطرق الإسقاطية، والتي تقول عنها أنها لم تقنن بطريقة مناسبة من حيث التطبيق وتقدير الدرجات (Anastasi, 1988, P 614). وأما عسكري، فيرى أنه من المشكلات الأساسية في ميدان السيكموترية، هو محاولة إضفاء صيغة الرقم على أنه ظاهرة في الوجود، لذا كانت أهم المشكلات التي واجهت الباحثين المضطلعين بالصبغة العلمية، هو الوقوف على معامل صدق الاختبارات الإسقاطية، إلا أن التعميم الرقمي يصعب تطبيقه بالنسبة لمعظم الأساليب الإسقاطية، إذ يكاد يكون من المعتذر اختبار عينة تمثّل قطاعا كبيرا في المجتمع، وخاصة بالنسبة لاختبار من نوع (TAT) يقوم على أساس تحليل مضمونه ديناميا، مضيفا أن مشكلة ثبات الاختبار لا تختلف عن مشكله صدقها (عبد الله عسكري، 2001، ص 184-185). لكن مشكلة الاختبارات الإسقاطية المطروحة كذلك هي المظاهر الشخصية لعلم النفس بالنسبة لمطبق الاختبار لا بد أن يهتم بها، وهي: مشكلاته الرئيسية في التوافق ودفاعاته المفضلة للعلاقات الشخصية، والدوافع التي يخاف منها، والإشباع الشخصي والضمانات التي يسعى لها من خلال الاختبارات النفسية والعلاقات مع المرضى والزلاء، ونمط الحساسيات والنقط المظلمة التي تعكس طريقته في حل صراعه الشخصي (روى شافر، 2015، ص 141). كل ذلك يعني أن مشكلة صدق ومصادقية الطرق الإسقاطية، وذلك في جميع أبعادها، تطرح نفسها بالنسبة للأداة في حد ذاتها بما في ذلك البيئة أو المجتمع أو الثقافة التي تمّ تصميم الأداة فيها. واختصارا للجدل المطروح حول قضية مدى صلاحية الطرق الإسقاطية ومصادقية نتائجها، يمكن اعتبار ما ذكره (Louis Brunet, 2001, P 335) فصلا في المسألة معتبرا أنه بالنسبة للبعض، هذا الأمر يشكل ضعفا في هذه

الأدوات، ويكفي لوحده بعدم القدرة على إعطاء حالة الاختبار السيكمومري للأدوات الإسقاطية، ولكن هل يمكن تقديرها على المستوى العلمي أو حتى على مستوى الصلاحية؟ بالطبع لا، لأن قيمة الأداة الإكلينيكية لا تعتمد فقط على خصائصها السيكمومرية. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن تكون صلاحية الأداة الإكلينيكية مهمة للغاية دون أن يكون من الممكن إجراء دراسة إحصائية عليها، لا سيما بسبب تعقيدها أو الطبيعة النوعية لاستخدامها.

سادسا: محاولات في تكييف وتقنين الاختبارات الإسقاطية :

انطلاقا من مسلمات الواقع الملموس يمكننا القول أنّ نجاعة وفعالية الممارسة النفسية في المجتمعات العربية بشكل عام ترتبط ارتباطا وثيقا بالوصول إلى تكييف الاختبارات النفسية بما يتلائم ويتناسب مع واقع المفحوص العربي. ولا بد أن نشير هنا إلى محاولات بعض الباحثين تكييف بعض الاختبارات النفسية، وعلى وجه الخصوص الاختبارات الإسقاطية.

فمن الدراسات التي اهتمت بالحساسية الثقافية والخصوصية الاجتماعية تلك التي قام بها مالك بدري (1964، 1965)، حيث قام بتطبيق اختبار الرجل في السودان على عينة من أطفال الحضر والريف، ومن الذكور والإناث، تراوحت أعمارهم بين أربع وعشر سنوات، وقد قام بدري ببعض التعديلات المقترحة على عناصر الاختبار وفي التساهل في تصحيح بعض الأجزاء خاصة في تقدير طول الجذع والساقين في حالة الجلباب (الجلابية)، كما تم اقتراح عناصر جديدة من إظهار الوشم أو الشلخ على الحدود ورسم العصا أو الخنجر في حالة رسم الرجل بملابس قومية. ومن المشاكل التي وجدها بدري هو عدم معود أطفال القرى لاستخدام القلم والورق الرسم خاصة لدى أطفال الأرياف، وكذلك اختلاف أزياء الرجل السوداني من مجتمع إلى آخر، ما دفع به إلى اقتراح عدة تعديلات على الاختبار وإضافة عناصر جديدة لتناسب البيئة المحلية. وعلى ضوء ما توصلت إليه دراسة بدري وبناء على التعديلات المقترحة وفقا للملابس العربية، أجريت دراسات مماثلة في كل من الكويت بواسطة رأفت (1968)، وفي مصر بواسطة غنيم (1976)، وفي السعودية بواسطة أبو حطب (1977) (عمر هارون الخليفة، 2012، ص 84).

لكن دعنا نثير نقطة هامة فيما يخص اختبار رسم الرجل عند إشارتنا إلى أنه اختبار نفسي إسقاطي وبذلك نوضح ما قد يبدو للبعض أنه خطأ في توصيف الاختبار على أن ينتمي إلى الطرق الإسقاطية، في حين أن المعايير التي تم تعديلها في الاختبار ترتبط ارتباطاً مباشراً بخاصية ووظيفة الاختبار في جانبه القياسي لتقييم مستوى الذكاء، وذلك وفقاً لما وضع له من طرف مصممه فلورانس غودنوف Florence Goodenough، وبذلك تكون عملية التكيف التي قام بها بدري قد مست هذا الجانب من الاختبار. لكن اختبار رسم الرجل، يقيس أيضاً جوانب نفسية أخرى: الوجدان، الانفعالات، التقمصات، صورة الذات، الخ... كم أشارت إلى ذلك ماكوفر Machover حين قامت بالإشارة إلى الوظيفة الإسقاطية للاختبار، ووضع معايير تحليلية للنواحي الإسقاطية منه في كتابها «إسقاط الشخصية في رسم الشكل الإنساني» (ماكوفر، 1987).

كما حاولت (كريمة علاق، 2012) تقنين اختبار رسم العائلة باستخدام تقنية رسم العائلة المتخيلة والحقيقية على عينة قوامها 320 طفلاً، ذكور وإناث، تراوحت أعمارهم بين 6 و10 سنوات بمدينة مستغانم، حيث توصلت الدراسة إلى أن تطبيق تقنية رسم العائلة سواء بطريقة كورمان Corman في رسم العائلة المتخيلة أو رسم العائلة الحقيقية بورو Porot، أعطى نفس النتائج التي توصلت إليها دراساتي كلّ من كورمان وبورو، وذلك من الناحية المنهجية والتطبيقية، في حين أنّهما لم تتفق معهما من ناحية التفسير والتحليل. وقد أرجعت الباحثة السبب في ذلك على وجود اختلافات ثقافية واجتماعية لعينة الدراسة.

يتضح من خلال الملاحظات التي استنتجها بدري من دراسته، والتي على أساسها قام باقتراح بعض التعديلات التي تطلبها عملية تكيف الاختبار مع البيئة العربية بشكل عام، أن القيمة الإسقاطية للاختبار قائمة، وبأنّ الاعتبارات الثقافية والاجتماعية والدينية، قائمة هي كذلك، ومن ثمّ فهي تجد مكانها ضمن الإطار التحليلي العام لنتائج الاختبار، والتي تتقارب مع نفس الملاحظات التي أشارت إليها علاق في نتائج دراستها، فمحتوى هذه الملاحظات هو ما تطالب به أغلب النظريات النفسية المرجعية للطرق الإسقاطية التي باتت مؤمنة أنّ بناء الهوية الشخصية للأفراد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجماعات التي ينتمون إليها، والأسرة، والفئة الاجتماعية، والدين، والتقاليد الإقليمية، الخ.

سابعاً: التأثير الثقافي الديني على الاختبارات النفسية:

وفقاً لـ (عبد العزيز بوسالم، 2015، ص 21) أكدت بعض الدراسات عبر الثقافية أو ذات الطابع المقارن في مجال علم النفس، أمثال دراسة (Nikto، 2001)، ودراسة أمينة محمد كاظم (1996) وجود، وجود عدة مشاكل تنشأ من جراء الاختلافات الثقافية. فكلّ ثقافة تتميز بمعايير وقيم ومفاهيم تختلف عن الثقافات الأخرى، منها: اللغة، ومدى قدرتها على التعبير عن مختلف المعاني. فيما يشير (Kauffman et al., 2000) إلى أنّ أغلب الاختبارات النفسية المنقولة ثقافياً إلى ثقافات أخرى هي اختبارات منحازة ثقافياً، وأنّ هناك عدداً واسعاً من الاختبارات ووسائل القياس الأخرى التي تتسم بسهولة التطبيق، إلّا أنّها تقيس عدداً قليلاً من المكونات والعوامل للسمة النفسية المقاسة، وذلك بغض النظر عن المكونات الحقيقية للسمة في ثقافة أخرى (عبد الرحمان عباس، 2017، ص 138).

وفي نفس السياق يذكر (Lomov et al., 1993) أنّ المفاهيم التي تطورت في ثقافة معينة ستكون أقل فاعلية في التفاعل مع عقول الأفراد في ثقافات مختلفة، نظراً لأنّ المفاهيم لا يمكن استيرادها، فهي تعكس قيم الثقافة والخصوصية التي تطورت فيها، كما تحتوي المفاهيم على قيم وآراء تعمل على تشويه الإدراك وإعاقة الفهم العميق عندما تطبق في بيئة أخرى (عبد العزيز بوسالم، 2017، ص 188).

وبحسب تيليش Tillich: "الثقافة هي الشكل التعبيري عن الدين، والدين هو مضمون الثقافة". إنّ التمييز بين الشكل والمضمون هو تمييز من حيث المبدأ. وأما في الواقع، لا يتم الفصل بين الاثنين وكأتهما كائنين ننظر إليهما. وفي هذه النقطة، يصير تيليش على أنّ الشكل والمحتوى لا ينفصلان، وبالقول: من غير المعقول (من السخف) أن يطرح أحدهما دون الآخر، ثمّ يضيف: في الواقع، بدون الشكل، سيختفي المحتوى في الفراغ، لأنه هو نفسه بنية الوجود؛ وبدون المحتوى، يكون الشكل ميتاً، وبنية بلا معنى، وبالتالي فإن الشكل والمحتوى هما عنصران من نفس الإبداع الثقافي (Michèl Displand, 1987, P 217).

كما يذكر (آزاد إسماعيل، 2014، ص 10-11) أنّ للدين تأثير في أتباعه أو بعض أتباعه، حتى أنّ هذا التأثير يصل إلى حد إزهاق نفوسهم أو نفوس غيرهم، ومن هذا المنطلق يلاحظ ارتباطاً قوياً بين الدين والسلوك، المستقيم والشاذ، مما يحث الباحثين على محاولة دراسة ذلك الارتباط وسير أغواره وفك أسرارها.

ثامنا: رائز القدم السوداء كنموذج للتأثير الثقافي الديني في الاختبارات الإسقاطية:

يعتبر رائز خروف القدم السوداء نموذجا تمثيلا هاما لدور تأثير الجانب الثقافي والديني في نوعية ومدى صلاحية الاختبارات الإسقاطية في استثارة الجانب التقمصي للمفحوص من خلال استجاباته للمثيرات التي تستدعيها بطاقات الاختبار، حيث يعرف الاختبار بوجود نسختين له، إحداهما (وهي النسخة الأصلية) موجهة للبيئة الغربية، ونسخة ثانية موجهة للبيئة العربية والإسلامية على وجه الخصوص. وفيما يلي توضيح لتداعيات وجود نسختين لهذا الاختبار، تعود في أساسها كم سبق الذكر، إلى دوافع دينية وثقافية بالدرجة الأولى:

1 التعريف بالاختبار:

هو اختبار إسقاطي قام بوضعه لويس كورمن Corman بهدف الكشف عن جوانب الشخصية التي قد يصعب التعرف عليها بطريقة مباشرة. وقد تكون الاختبار في مرحلته التجريبية من ثلاثين لوحة، أبقى كورمن Corman في الصيغة النهائية على 18 لوحة (صورة) تمثل مغامرات مجموعة من الخنازير من بينهم خنزيرين يحملان بقعة سوداء على مستوى القدم، أحدهما كبير والآخر صغير (والذي يعتبر بطل القصص)، حيث تعتبر البقعة السوداء مصدر تسمية الاختبار بـ "رائز القدم السوداء Test de Patte Noire" (Louis Corman.1999).

2 الهدف من وضع الاختبار:

إنّ الهدف من وضع اختبار "القدم السوداء" هو المساعدة على فهم واستكشاف ديناميكيات شخصية الأطفال الذين تقع أعمارهم بين أربع وعشر سنوات وهو يسمح عن طريق عملية التماهي بموضوعات الصور المقترحة بكشف انفعالات وعلاقات الطفل الواعية بالصور المتداخلة للوالدين، كما يكشف عن الجوانب اللاشعورية لشخصيته والآليات الدفاعية العميقة للطفل والتي تمثل مصدرا لبعض الاضطرابات النفسية والسلوكية.

كما يسمح الاختبار أيضا بتحديد وضعية الطفل فيما يتعلق بعقدة أوديب، ودراسة الصراع التنافسي بين الأخوة والكامن وراء المتلازمات السريرية غير المحددة، وكذا التعرف على العديد من الجوانب الأساسية لمشكلة النرجسية، لا سيما "الانسحاب النرجسي" الناتج عن بعض الإحباطات الخطيرة.

3 الاعتبارات الثقافية الدينية لوجود نسخة ثانية للاختبار:

لقد قام لويس كورمن Corman في كتابه بعرض الاختبارات التي اعتمد عليها في تشكيل اختبار، حيث أكد أنه استلهم اختبار Blum حول مغامرات الكلب بلاكي (Blacky Picture test) بحيث أن كل لوحة تعبر عن مرحلة من المراحل المتعاقبة للنمو النفسي والجنسي للطفل، وقد اعتمد في اختبار "مغامرات القدم السوداء" على نفس مبدأ Blacky، بوصفه اختباراً بصرياً تصويرياً، يعتمد على مجموعة لوحات تدور حول مغامرات خنزير له بقعة سوداء على رجله. كما يعترف Corman أن اختيار الخنزير كبطل لرائته يعود إلى محض الصدفة على اعتبار أن الأطفال، بشكل عام وبفضل الصور المتحركة لـ Walt Disney، يألفون بسهولة الخنزير مما يسهل عملية التماهي مع البطل في هذه المغامرات.

لكن، بعد تطبيق الاختبار، في لبنان، على عينة أولية متنوعة المذاهب من الأطفال لم تظهر القيمة الإسقاطية للرائز، أي أنها لم تتوصل إلى نفس التفريغ الإسقاطي الذي توصل إليه مصمم الاختبار مع عينة كبيرة من الأطفال الأوروبيين، حيث رغم الاهتمام الذي أبداه أطفال العينة اللبنانية نحو لوحات الاختبار إلا أن عملية التماهي بالخنزير بدت شبه مستحيلة عند عدد كبير منهم، الأمر الذي ربطه فريق البحث والتطبيق بالمكانة والرمزية السلبية لـ "الخنزير" في الديانة والثقافة الإسلامية.

وعليه، فقد تم التفكير في استبدال الخنزير بخروف صغير، وهذا ما أشار إليه المؤلف أيضاً في مستهل كتابه ولكن هذه الصيغة لم تكن يومها مختبرة بشكل كافٍ إلا في إفريقيا الشمالية، وهي صيغة تتعلق بمغامرات خروف له بقعة سوداء، وذلك لما لهذا الحيوان من مكانة محبة عند الأطفال (Louis Corman, 1982).

4 وصف الاختبار المكثف:

يحتوي الاختبار على 17 لوحة تدور أحداثها حول "يوميّات" خروف صغير لديه بقعة سوداء على مستوى القدم (لكن من المتداول أثناء الحديث عن الاختبار نعتة بالقدم السوداء إشارة إلى البقعة السوداء).

يبدأ الاختبار باللوحة التمهيدية Frontispice وهي لوحة محايدة، لا توحى بنزوات محددة، ولا تقوم الشخصيات الممثلة فيها بأي حركة أو نشاط مقارنة بالصور الأخرى. وأما باقي اللوحات فتعطي أهمية كبيرة لبطل العائلة "الخروف ذو القدم السوداء" الذي يفترض أن يجذب انتباه الطفل إليه، وعليه فإن الصورة كفيلة باستثارة الطفل نحو التعبير على مختلف المواضيع التي قد يعاني منها: كالرحيل، والعزلة، والهجرة، والرضاعة... الخ، وعن مشاعره، كما قد تذكره بمختلف مشاكله، وعلاقته بأسرته.

لكن عملية التكييف أو التعديل هاته تطرح مسألة ثانية هامة وجوهرية أثارها (Robert Berthelie, 2006, P 23) فيما يخص رائز القدم السوداء وهي أنّ تعديل الاختبار عن طريق استبدال الخنازير بالخرفان قد جعله بلا شك أكثر قبولاً للأطفال من أصل شمال أفريقي. ولكن تبقى الحقيقة أن هذا الاستبدال البسيط ترك مسألة المراجع الثقافية للأوضاع المعروضة كما هي.

5 محتوى بطاقات الاختبار:

تحتوي بطاقات اختبار القدم السوداء، شأنها في ذلك شأن كلّ الاختبارات الإسقاطية التي تعتمد على تقديم مجموعة من البطاقات للمفحوصين، على محتوى ظاهر ومحتوى كامن خاص بكلّ واحدة منها، وهذا ما يعني أنه يفترض بالمفحوص (هنا الطفل)، في الحالات العادية، أن يستجيب للمثير الذي توحى به كل لوحة بالمتن المرادف له، ويصبح المؤشر لتكييف المفحوص هو المرونة في الانتقال من متن إلى آخر.

6 مبادئ تفسير وتحليل الاستجابات:

كغيره من الاختبارات النفسية الإسقاطية، تستجيب عملية تفسير وتحليل نتائج الاختبار إلى مبادئ التحليل النفسي (خاصة مفهومي الإسقاط والنزوات اللاواعية) ونظرية الجشطت (وحدة الكائن الحي، وعملية الإدراك الكلّي)، بحيث أنّ بنية استجابات البروتوكول الخاص بالمفحوص تعكس بنية شخصيته. فالمميزات الأساسية لهذه الأخيرة تبقى محفوظة في البروتوكول وتصل إلى حقيقة الدفينة عن طريق جهد فكري وعمل تفسيري مرتبط بمهارة وتجربة الأخصائي النفسي (سي موسي، زقار، 2015، ص 82)، ودون أن تُحمل مسألة المرجعية الذاتية للمفحوص.

خاتمة:

يعتمد الأخصائي النفسي في ممارسته المهنية على تطبيق الاختبارات النفسية باعتبارها وسيلة هامة تساعد في التشخيص والتقييم والعلاج. لكن استخدامه لهذه الاختبارات يطرح مشكلة جوهرية ألا وهي مسألة تكيفها وفقا لمتطلبات البيئة الاجتماعية والثقافية والدينية التي تطبق فيها الاختبارات، وهي مسألة ترتبط بمدى صلاحية وصدق هذه الاختبارات، وكذا مصداقية نتائجها. وقد انطلقنا في ورقتنا البحثية هذه من خصوصية الاختبار الإسقاطي وتأثير الجانب الثقافي والديني في هذا النوع من الاختبارات، وذلك من خلال التركيز على الجانب التفسيري والتحليلي له باعتباره حجر الزاوية الذي تركز عليه عملية التشخيص والتقييم. وقد خلصنا من خلال ورقتنا البحثية أنّ خصوصية ومميزات الطرق الإسقاطية تكمن في أنّها لا تقيس نواحي جزئية من شخصية الفرد وإنما تحاول الكشف عن شخصيته ككل، وهذا ما يجعل وجهة نظر الإسقاطية دينامية من حيث نظرتها إلى سلوك الفرد في إطار شخصيته ككل، مراعية في ذلك مرجعيته الذاتية.

قائمة المراجع:

- 1) إسماعيل، آزاد علي، (2014)، الدين والصحة النفسية، هرنندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- 2) بوسالم، عبد العزيز، (2017)، الصدق الثقافي للاختبارات النفسية المطبقة في الجزائر ومشكلة التكيف من أجل الصلاحية، مجلة العلوم النفسية والتربوية، المجلد 4، العدد 2، ص 185-196.
- 3) بوسالم، عبد العزيز، (2015)، الاختبارات النفسية المطبقة في الدراسات الأكاديمية الجزائرية وضرورة التكيف من أجل الصلاحية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 7، العدد 2، ص 20-26.
- 4) الخليفة، عمر هارون (2012)، مآزق علماء النفس في التعليم العالي، الأردن، مركز ديونو لتعليم التفكير.
- 5) رونالد، هامبلتون وآخرون، (2006)، تكيف الاختبارات النفسية والتربوية عبر الثقافات، ترجمة: هالة برمضان الرياض، المملكة العربية السعودية، مكتبة العبيكات.
- 6) سلامة، مروة محمد، (2015)، الاختبارات الإسقاطية والتحليل النفسيين القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
- 7) سي موسي، عبد الرحمان، زقار، رضوان، (2015)، العنف الإرهابي ضد الطفولة والمراهقة، علامات الصدمة والحداد في الاختبارات الإسقاطية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

- (8) شافر، روى، (2015)، الاختبارات الإسقاطية والتحليل النفسي، ترجمة: محمد أحمد خطاب ومروة فتحي سلامة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
- (9) عباس، عبد الرحمان، (2017)، الانحياز الثقافي للاختبارات النفسية ذات المنشأ الغربي في البيئة الجزائرية، مجلة السراج في التربية وقضايا المجتمع، المجلد 1، العدد 1، ص 134-150.
- (10) عسكر، عبد الله، (2001)، الاكتئاب النفسي بين النظرية والتشخيص، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
- (11) علاق، كريمة، (2012) محاولة تقنين اختبار رسم العائلة باستخدام تقنية رسم العائلة المتخيلة والحقيقية، دراسة على أطفال 6-10 سنوات بمدينة مستغانم، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، قسم علم النفس، جامعة وهران، الجزائر.
- (12) فالادون، نظريات الشخصية، (1990)، ترجمة علي المصري، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- (13) ماكوفر، كارين، (1987)، إسقاط الشخصية في رسم الشكل الإنساني، ترجمة: ليلة، رزق سند ابراهيم، بيروت، دار النهضة العربية.
- (14) اللصاصمة، محمد حرب، (2018)، طرق دراسة الطفل، الأردن، دار الكتاب الثقافي للنشر والتوزيع.
- 15) Anastasi, A, (1988), Psychologycal testing, New York, 6th Ed. Macmillian Publishing,
- 16) Bokholt, M, (1999), Epreuves thématiques en clinique infantile : approche psychanalytique, Paris, Ed. Dunod.
- 17) Brunet L, (2001), L'Expertise psycholégale : Balises Méthodologique et Déontologiek Canada, Presses de l'Université du Québec
- 18) Arbisio-Lesourd, C, Del Volgo, M-J, et al., (2001), La psychologie clinique, V 1 : Individu, Sujet et Société, France, Ed Bréal.
- 19) Berthelie, R, (2006), Enfants de migrants à l'école Française, Paris, Ed. L'Harmattan.
- 20) Corman L, (1982), Test de Patte Noire, Paris, France, Editions du centre de Psychologie appliquée
- 21) Corman L, (1974), Le Test de Patte Noire: Manuel, Paris, France, Editions Presse Universitaire de France.
- 22) Displand, M, (1987), Religion et Culture: actes du colloque internationale du Centenaire Paul Tillich Université Laval, Québec , 18-22 Aout 1986, Presses Universitaires Laval.
- 23) Hamon J-F, Bison, T et Andrianaivo-Razafmanijato, V, (2001), Culture et personnalité, In Kabaro, Revue internationale des sciences et des sociétés, V 1, N 1-2, Anthropologie, Psychologie, Sociologie, Ed. L'harmattan.

- 24) Levy, A, Missler, S, (2010), Conférence de Consensus : l'examen clinique et l'utilisation des mesures en psychologie de l'enfance, Association nationale des psychologues de l'Education (A.N.A.E), V 109, P 318-322, <https://www.appea.org>, récupéré le : 03/03/2018.
- 25) Postel, J, (2003), Dictionnaire de la psychiatrie et de psychopathologie clinique, Paris, Larousse.
- 26) Rondal J-A, (1999), Manuel de psychologie de L'Enfant, France, Ed. Mardaga.
- 27) Roussilon, R, (2014), Manuel de psychologie et de psychopathologie clinique générale, France, Ed. Elsevier Health sciences.
- 28) Samatcher. R, (2005), Psychologie clinique et psychopathologie, Paris, 2^{ème} Ed. Bréal.